ـراف العصر الذهبي

من قبة القلب إلى قبة المسرح

عبيدو باشا*

لا يندرج حضور غازي قهوجي، في مجالاته بالاختناق. الاختناق، عنده، عبث الوجود. لم ينتم الكاتب والسينوغراف، إلى صحافة السخافة، وهو يهجو بكتبه القليلة، نقاط الإعلام في لبنان والعالم العربي. كل قضية، قضية عبور طويل، بالطريق إلى الوصول إلى منطقة الألوان الصريحة. بعيداً من مفاتن المذاهب الاستهلاكية، نط فوق الخيبات والتقلبات لإزالة الأوهام وقيادة الجمهور إلى الأسس المتينة، لكل ما يمتّ إلى فن المسرح. في الجامعة، انتشر نوره، بحيث علم الجميع، أنا منهم، الفرق بين الأحمر والدم. الفرق بين الأزرق و«الأبيض المتوسط». هناك، عند كعب المبنى الحديث في منطقة الروشة، فرَّغ الكلمات من كل معنى زائد. هناك، في الطابق العاشر، في غرفة عادية، المطبخ على الأرجح، مرر عبر عباءة الوجود المثقبة بالحرب، أحد أهم الفنون المسرحية المجهولة، حتى تلك الأيام البعيدة. السينوغرافيا، أو فن شحن المسرح بالكثافة الإضافية. لا يهرب من البلاد، في غياب الأجواء الحلمية، وهو يقضي معظم أوقاته بتغيير عادات العيون. لم أعد اتذكر غازي قهوجي، مذاك، لأنه أضحى، شيئاً لا يمحى من اليوميات. ما عاد أجاب على هاتفه الخليوي في الأيام الماضية، لأنه ما عاد وجد صورته «الجديدة» مساوية لصورته «القديمة»، بعدما أصيب جسده بالضمور.

ما أراد أن نسمع تقطعات أنفاسه، وهو على سرير الغربة والوحدة في الجامعة الأميركية. داس على الواقع بأقدام قاسية، غير أنه كلما داس، حلَّق. بيتر بان بيروت وعواصم المشرق العربي، لم يصبه ألم الجسد المحبوس في مضيق التنفس في تلك السنوات، لأنه لم يبتعد عن مصباح روحه، روح خَيِّرة، طيبة، متفائلة. شروط الطيران في أفلام بيتر بان. الفرق بينه وبين صناع السلسلة المشهورة، أنه ربط المسافة بينه وبين خياله، بالجهاز العصبي لا باليد. بقي محمولاً، برفعة مستوى لزومه، بالتجارب الكثيرة. شارك كل صباح، لا بتتبع الخطى، برسم الخطى، على منصات كبار مسرحيي لبنان، بعياراتهم المختلفة، من الأخوين رحباني، إذ تهادى بزهو قليل بينهما وبين السيدة فيروز، إلى زياد الرحباني («فيلم أميركي طويل») وغيرها) ويعقوب الشدراوي في «هجائية الطرطور» عن «فرافير» يوسف ادريس، وشارون على أبواب بيروت، يمر في أزقة الظل بين شركتي مياه بيروت وشركة كهرباء لبنان، ممارساً هواياته القاتلة، بقطع الماء والكهرباء عن بيارتة العام 82. ثم، روجيه عساف، بواحدة من مسرحياته البعيدة عن أدوات المسرح العادية: «كرامبول».

في «كرامبول»، لعب غازي قهوجي أدواره ذات القرارات المرتفعة، الموحدة بين المقامات واللغة. البعيدة عن الحذلقات. ثم، أخذه الوضع إلى غناء الألم المتصاعد، بعدما أضحت البلاد جهنم النهايات الدائمة. ليس غازي قهوجي، شاعر كبير في التجربة المسرحية اللبنانية، لأنه شاعرها الوحيد، عبر السينوغرافيا، ذلك أنه لئن امتلك الكتابة الشعرية في المسرح، إنما امتلكها بالرهانات الواقعية، على جسر البساطة الشخصية، بتضاريس الطريق، بصخورها ذات النبض، الصامت، الهائل. كل مسرحية رهان. كل مسرحية، بالبهو، على سجادات تشريف غازي قهوجي. رسم سينوغرافيا مسرحية لأحد أبرز الكتاب المسرحيين في لبنان والعالم العربي: أسامة العارف. سينوغرافياه واحدة من أشكال جمال الزمن، في «بنسيون الست نعيمة» (1991 ـ توقفت عروضها بسبب ارتفاع سعر صرف الدولار الأميركي والأحداث الموازية). كل مسرحية عنده، ناتج العكس. لا لأنه يعارض المكتوب، بل أنه يقرأ الداخل بالداخل. هناك، يغدو الشكل واضحاً، كخارج، وهو يمنح نعمة تقاسم الفضاء المكسو بجمالياته الرصينة، ذات الرحابة، ذات الأفق. عالم يجيء إلى المسرح، عالم غازي قهوجي. لم يكتفِ بذلك، لأنه أدرك أنه ينبغي إبطاء الواقع، بغية بلوغ معناه. هكذا، ساهم في إطلاق مسرح الأطفال اليومي، مع عمر الشمَّاع وفائق حميصي. هكذا، حارب الواقع الضاري لحصر الأعمال الفلكلورية، والراقصة، بالحفر في الماضي وحده، مع فهد العبد الله. بفرقة العبدالله. هناك، بدت المسرحيات الراقصة، على قدر من الرحابة، من رحابة غازي قهوجي. لأن الرجل امتلك كل بداءة الحب. كل أدوات المسرح غير المجوفة بالتواضع الأجوف.

الإشارات حاضرة بغازي قهوجي. لا علاقة له بالتطبيقات البطيئة، وهو يشيد الأعمال في فلك النظرات ذات البؤر المزدوجة. لم يرفع سقفاً مستعاراً، حين طلبت منه، أن يغير بالهوة الفاغرة في إنجيلية المصيطبة. أخذ المنظور المبسط، أعاده إلى الياس شوفاني، حلقات حلقات، فوق تيجان الأعمدة. أصعد ثقب الضياء، من قبة القلب إلى قبة المسرح. هذه قاعدته الدائمة، أن نسمو لا أن نرتطم. لم يقدم أقراص عسل علاقته بالآخرين، إلى الآخرين. أمين صندوق ذكريات الأخوين رحباني. أمين صندوق ذكريات الكثيرين، أبقى الذكريات بفراغات أزمنتها، بدون أن يخنقها. هذا الرجل بحيرة، بحر. هذا الرجل، أجمل من بحيرة، حرٌ، ينتج بدون رغبة بإمحاء أحد. لا حسابات خسائر، عنده. ولا مصادرة إيماءات. شبكة منمنمات مطرزة، بروح الأسلاف والحضارات الجديدة. لا شيء، بعيداً من المسرح، بالرجل، إلا حياء الرجل. لطالما أخفى حياءه بالهجاء والتهكم والتنكيت. لن ينام بعد اليوم، بعد أن مات هادئاً، هدوء لهجته الهادئة. مات صياد الفيروز، من ألوان الماء. مات حارس عرائس البحر. لا دليل، بعد، لإرجاء الحزن.

* ناقد مسرحي لبناني

خلال تشييعه أمس

سيرة

في مدينة صور الساحليّة (جنوب لبنان)، ولد غازي قهوجي عام 1944. لا شيء يفوق حبّه للبحر. صور بالنسبة إليه ليست جغرافيا، بل هي الناس والصيّادون والحرفيون وكل ما تحويه من أطياف دينية ومذهبية تمثّل نموذجاً لبنانياً فريداً. نشأ في بيئة قومية عربية. كان والده شاعراً تهكّمياً يمتلك مكتبة ضخمة، ووالدته كانت «من المتعلّمات الأُوَل في صور». من ملاعب «الكلية الجعفرية»، كان ينطلق ورفاقه إلى التظاهرات، رافعين شعارات العروبة والدفاع عن فلسطين. عام 1961، إنتقل إلى ثانويّة «المقاصد»، قبل أن يدخل إلى «الجامعة اللبنانية» في بيروت ليدرس العلوم السياسية والإدارية.

في عام 1966، انطلق إلى العاصمة البلغارية ليمضي ست سنوات متخصصاً في علم السينوغرافيا. كتب عنه الراحل عصام محفوظ مقالة في أواخر 1972، فأثارت انتباه منصور الرحباني الذي أرسل في طلبه. استمر التعاون 22 عاماً، انطلاقاً من مسرحية «لولو»، مروراً بـ «المحطة» و«بترا» و«المؤامرة مستمرة» و«ميس الريم» و«الربيع السابع»، وإعادة لمسرحية «الشخص» في الأردن، فضلاً عن مجمل الأعمال الغنائية والاسكتشات المتنقلة. عمل كذلك مع زياد الرحباني في مسرحياته «نزل السرور» و«بالنسبة لبكرا شو» و«فيلم أميركي طويل»، إضافة إلى مسرحيات نبيه أبو الحسن كـ«أخوت شاناي»، وباقة من أعمال يعقوب الشدراوي وروجيه عساف وعبد الحليم كركلا وفهد العبد الله وجواد الأسدي وفائق حميصي ونجدة أنزور وغيرهم... وهناك أيضاً عشرات المسلسلات التلفزيونية والأفلام، منها فيلم «ناجي العلي» (1992) للسينمائي المصري عاطف الطيب بطولة نور الشريف، و«التقرير» (1986) لدريد لحام ورغدة. وكان المدير والمشرف الفني العام لفرقة الرحابنة وفيروز وشارك في العديد من أعمالهم طوال عشرين عاماً، إضافة إلى تعاونه مع فرقة فهد العبد الله في تصميم الأزياء والديكور. كانت له مساهمات في مهرجانات لبنانية كثيرة كمهرجاني بيروت وصور، وهو عضو مؤسس للحركة الثقافية في لبنان، كما قدّم برنامجاً إذاعياً بعنوان «قهوجيات»، وكتب أفكاراً للإذاعة اللبنانية، وأعدّ أبحاثاً في تاريخ العادات والتقاليد. كتب قهوجي في شبابه في ملحق «النهار» يوم كان الشاعر الراحل أنسي الحاج مسؤولاً عنه. كان كتابه الأوّل «قهوجيات ـ أركيلة الحلم العربي» عام 2003؛ ثمّ «قهوجيات ـ ما هبّ ودبّ» عام 2005، وأخيراً «قهوجيات 3 ـ عرب الصابون» عام 2007. أكاديمياً، درّس الراحل مادة فن الديكور والتصميم المشهدي والسينوغرافيا وتاريخ الأزياء في الجامعة اللبنانية و«الجامعة اليسوعية».

يا غازي الحبيب... ها أنا صرتُ فقيراً

ياسين رفاعية*

غازي قهوجي رفيق عمر من أربعين سنة. كان شاباً مليئاً بالنشاط حتى لتحسب أنّه عشرة رجال. أحببته منذ يفاعتنا، لثقافته المميزة المتنوعة في كل أشكالها، ولطرافة الجلوس معه، حيث نكتة إثر نكتة، وحكاية بعد حكاية. كان يجلونا من داخل بتفاؤله وحبه للحياة. وإذا جاء الجد، فلا تسأله عن بيت شعر حتى يقول لك من صاحبه. وأظن أنّه كان يحفظ أكثر من مئة ألف بيت من الشعر، ولكل مقام مقال. حبّوب ومحبّ ولم تكن الابتسامة تفارق وجهه الصبوح. كان جاري، بيته على بعد خطوات من بيتي. كنا دائماً وكل يوم نجلس معاً في مقهى «السيتي كافيه» المأسوف عليه أيضاً. كان يجمعنا وراء طاولاته، فلا نملّ من بعضنا في رحابة هذا المقهى الذي خسرناه وخسرنا التلاقي فيه.

كنت على اتصال دائم بغازي، وربما كل يوم أو يومين. لم يكن يتحدث عن مرضه. وكنا نتحاشى سؤاله عنه طالما أنّه لا يريد الحديث فيه... وكنت أنتبه جزئياً إلى ضموره يوماً بعد يوم، فأخاف أن أساله لأسمع منه خبراً يؤلمني. كان وسيماً وأنيقاً على الدوام، ويقبل على الحياة بهدوء رجل العلم، بل لأقل رجل الدين لكثرة شفافيته ورقته. كان عنده لكل سؤال جواب. أهتف له لأسأله عن مشكلة ما، أو قضية أدبية، فكان جوابه دوماً على رأس لسانه كما يقولون. سريع البديهة، سريع السخرية، ولا أحد يصدّق أنّه نشر ثلاثة كتب متسلسلة بعنوان «قهوجيات» كلّها سخرية بارعة من كل شيء، من الأوطان، من الناس، من الفنون، كل الفنون، من الآداب، كل الآداب، بمعرفة كل شيء وتحويل كل شيء إلى ضحك. كان يضحك من كل قلبه على مآسينا، معلّقاً: «بعد ما شفتو شي». وها نحن الآن، «شفنا» البعض مما توقعه غازي. كان يتنبأ بالكثير ولا يقول لنا إلا القليل.

كان محبوباً من الجميع حتى جيرانه والسوبرماركت الصغير لصق بيته. كنت أجيء إلى السيد فريد صاحب المحل لأسأله عن غازي، فيبادرني أنّه سأل عنك. كان حنوناً حنون الأم، وعطوفاً عطف الأب. وفي الحقيقة، رغم أنّني أكبر منه بعشر سنوات، لكني كنت أشعر وأنا أجلس إليه أنني التلميذ وأنه الأب. يكتشف الخطأ من نظرة، وينتبه إلى الصح في الشعر أو القصة أو المقالة، فيفرح معلّقاً: «ما زلنا بخير».

كنت شخصياً أحبه وأتآلف معه، بل كنت أستدرجه إلى الكلام لأنّ الكلام الذي يتحدث فيه، فيه صفوة الكلمة المنتقاة من غير قصد.

لم أصدّق، ولا أستطيع أن أصدّق أنّه رحل بغفوة منا، أو بشكل سري، عافياً الحياة الظالمة المستبدة، الكارهة للخلق.

كيف شاب بهذا العمر يجيء الموت بعباءته السوداء الفضفاضة ويأخذه منا؟ أليس هذا منتهى الظلم؟

كنا بحاجة إليه وما زلنا. وأنا شخصياً بحاجة إليه، إليه دائماً، بحاجة إليه في كل شيء، كنت بوجوده كصديق غنياً، وأنا الآن أصبحت فقيراً، فكيف لي أن أعثر على بديل له؟ هذا في رابع المستحيلات.

يا غازي الحبيب

وكما يقول المقدس: أنتم السابقون ونحن اللاحقون. وقال عمر بن الخطاب: الموت باب كل منّا عابره. وما نحن في الحقيقة إلا سكان بيوت تجاور المقابر.

* روائي سوري